مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

القيمة التاريخية والعلمية لتفسير ابن سلام

الأستاذ سعيد سالم فاندي
جامعة الجبل الغربي

إلى عهد قريب كان يظن كثير من الباحثين في الدراسات القرآنية أن أول كتاب شامل لتفسير القرآن الكريم، وصل إلينا هو تفسير جامع البيان لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310 هـ[1]، فبقيت بذلك سلسلة اتصال التدوين المستقل للتفسير مقطوعة بين التابعين الذين نقلوا عن الصحابة تفسير القرآن الكريم بالمأثور، وبين من جاء بعد أتباع التابعين مثل الطبري إلى أن عثر على مخطوط ابن سلام في التفسير بتونس، بل حققت بعض أجزاء من آخره بجهد الباحث: محسن ساسي[2]، وتقوم الدكتورة: هند شلبي بتحقيق بعض أجزاء أخرى منه، كما حقق الأستاذ حمادي صمود جزأين منه من قبل، وهذا التفسير الذي لا يزال أكثره مخطوطاً يحظى بأهمية تاريخية لسببين اثنين:

(1) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن ج 1 ص 504.

(2) شهادة كفاءة في البحث ـ كلية الآداب ـ تونس ـ إشراف ـ أ محمد بن عبد الجليل ـ مرقون ..

أولهما:

ما أشرت إليه في كونه يعقد الصلة بين نقلة علم التفسير بالأثر من التابعين أمثال: مجاهد بن جبر المتوفى سنة 104هـ، وقتادة بن دعامة الدوسي المتوفى سنة 118هـ، وبين عصر الطبري، فابن سلام من أتباع التابعين توفي سنة 200هـ.

وآخرهما:

أنه جسر للتواصل بين المشرق العربي ومغربه، فقد ارتحل ابن سلام من البصرة إلى مصر ثم إلى القيروان.

هذان سببان مجتمعان دفعا بي إلى كتابة هذا المبحث الذي أردت أن أنبه به إلى ما نبه إليه من قبل العلامة الفاضل ابن عاشور في كتابه: التفسير ورجاله[3] ومع ذلك لا يزال كثير من الباحثين يعدون الطبري صاحب أول تفسير جامع.

التعريف بابن سلام:

ولد يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي[4]، البصري منشأ والكوفي مولداً، سنة 124هـ، ثم انتقل به أبوه من الكوفة إلى البصرة وهو صغير، وقد أهملت المراجع تفاصيل حياته في مرحلة إقامته في المشرق، ومرحلة إقامته بأفريقية التي وصل إليها حوالي سنة 183هـ، فنشر بها علمه في الحديث والتفسير والفقه، ثم غادرها إثر محنة حدثت له مع أميرها إبراهيم بن الأغلب المتوفى سنة 196هـ[5]، فقد صالح يحيى بين ابن الأغلب، وعمران بن مجالد الربعي، الذي ثار عليه، ولكن ابن الأغلب قتل عمراناً، وكان قد تعهد لابن سلام، بالأمان، فغضب يحيى بن سلام لخفر ذمته، وغادر القيروان إلى مكة

(3) التفسير ورجاله ـ للفاضل بن عاشور ـ ص 42.

(4) معالم الإيمان في أعيان القيروان ج 1 ص 322.

(5) فتوحات الإسلام في أفريقية والمغرب والأندلس ـ ص 46. د/ محمد النجار، ود/ أحمد مجاهد.

ثم عاد منها، إلى القيروان، ولكنه مات بمصر ودفن عند جبل المقطم[6].

الأحوال السياسية والاجتماعية في عصره: ـ

كان ابن سلام وهو بالمشرق قبل سنة 183هـ يعيش في بيئة زاخرة بما ينفع وما يضر، ففيها النهضة العلمية، وفيها الترف والبذخ، وفيها الزهد والكفاف، فقد نهض العباسيون بأعباء الخلافة التي ورثوها من الأمويين، فاستمرت في عصرهم الفتوح، ولكن فتحت كذلك أبواب الثورات الداخلية، فأوجس الأمراء خيفة من العامة والخاصة، واشتد حذرهم من العلماء والقواد، ولعل لجوء ابن سلام إلى المغرب كان بسبب المضايقة التي تعرض لها وهو قريب من دار الخلافة بالعراق، واتفق أن اعتلى إمارة أفريقية الصغرى «تونس» إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ فنعم ابن سلام في عهده بالتكريم، لأنه أمير محب للعلماء والأدباء[7].

ويغلب على ذلك العصر التمايز الطبقي الذي نشأ بسبب الانصراف عن الفتوح، والانكباب على جمع الأموال التي يصرفها الأمراء على مقتضى مصلحتهم لا مصلحة الرعية في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من قوة الدولة العباسيه الناشئة في ذلك الوقت فإن شعور الناس بابتعاد الولاة عن مبدأ المساواة في الحقوق والمعاملات، ألجأهم إلى الثورات في المشرق والمغرب، وكان من هذه الثورات، ثورة عنيفة بالمغرب بقيادة عبد الرحمن بن رستم، الذي أرسل إليه العباسيون جيشاً يقدمه ابن الأشعث فطرد ابن رستم من القيروان، ففر إلى تاهرت، وأعلن قيام الدولة الرستمية سنة 144هـ، فبعث هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب أميراً على القيروان لكبح جماح تلك الثورات، فاستقل ابن الأغلب استقلالاً ذاتياً بالقيروان، فاستقرت الأحوال في عهده، وكثرت موارد الإمارة، ودليل ذلك إنشاء مدينة العباسية سنة 185هـ،

---

(6) لسان الميزان ج 6 ص 260. وتاريخ الأدب العربي ـ لبروكلمان ج 4 ص 10.
والإعلام للزركلي ج 9 ص 183.

(7) انظر فتوحات الإسلام للنجار ومجاهد ص 44.

على بعد ثلاثة أميال من القيروان في الجهة الجنوبية، كما بنيت مدينة رفادة، فصارتا مركزين للبذخ والترف، واحتفظت القيروان[8] بطابع التقشف والزهد، وصارت إمارة الأغالبة تمتد من سرت شرقاً إلى الزاب غرباً. في هذه الأحوال التي لا تستقر فترة حتى تضطرب أخرى عاش ابن سلاّم عالماً مهاجراً.

مكانته العلمية:

لا تتحدث المراجع عن قيمة ابن سلام العلمية إلا عرضاً، وهذا يؤكد احتمالاً يخضع للقبول والرد، وهو أنه خرج من المشرق فاراً من الاضطهاد، ولا يترجح احتمال أنه قدم إلى المغرب ناشراً للعلم، لأن المعتاد في ذلك العصر أن يفد طلاب العلم من المغرب على العلماء بالمشرق، كما فعل عبد الرحمن المعافري المتوفى سنة 161هـ، وأبو زيد اللخمي المتوفى سنة 172هـ والبهلول بن راشد المتوفى سنة 183هـ، وعبد الله بن فروخ المتوفى سنة 176هـ وكان قد روى عنه يحيى بن سلام. وقد دلنا التاريخ على أن المشارقة لم يكونوا يرتحلون إلى المغرب في تلك الفترة إلاّ مجاهدين مثل أسد بن الفرات وأبو محرز القاضي[9]، أو فراراً من الاضطهاد السياسي كما حدث لإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث فر من اضطهاد العباسيين في عهد الخليفة المهدي المتوفى سنة 169هـ[10].

ومع أن المراجع قد غمطت هذا المفسر حقه من التعريف إلا أنه توجد بعض التنويهات به في أشتات الموضوعات، فقد كان ابن سلام محدثاً صدوقاً ضابطاً عدلاً، يشهد لذلك أن الإمام مالك كتب عنه ثمانية عشر حديثاً[11].

ومالك هو من هو في التثبت والتحري، كما أنه حدث عن أعلام ثقات كسعد بن أبي عروبة المتوفى سنة 156هـ[12]، وحماد بن سلمة المتوفى سنة

---

(8) المصدر السابق ص 46.

(9) العرب في صقلية: إحسان عباس ص 32.

(10) فتوحات الإسلام ص 32.

(11) رياض النفوس لأبي بكر عبد الله المالكي ج 1 ص 122.

(12) ميزان الاعتدال ج 1 ص 151.

167هـ، وروى عنه أصبغ بن الفرج المتوفى سنة 225هـ فكان يحيى من أساتذته بمصر، كما أخذ عنه أبو داود بن موسى بن جرير العطار بالقيروان المتوفى سنة 274هـ الذي دون عنه جزءاً كبيراً من تفسيره، والجزء الآخر دونه عنه ابنه محمد بن يحيى بن سلام المتوفى سنة 262هـ، كما هو مذكور بالقطعتين الموجودتين من التفسير.

ومما شهد لمكانة ابن سلام اللغوية بعد مكانته في علم التفسير والحديث كتابه «التصاريف» وهو تفسير لغوي لألفاظ القرآن المشتركة، التي اتفقت حروفها، واختلفت معانيها، وقد حققته الدكتورة هند شلبي، وهو متداول بين أهل العلم.

يقول الداودي متحدثاً عن ابن سلام القارىء والمفسر والفقيه والمحدث واللغوي: «ويقال إنه أدرك نحواً من عشرين رجلاً ـ يقصد التابعين ـ وسمع منهم، وروى عنهم، وسكن أفريقية دهراً وسمع الناس كتابه في تفسير القرآن وليس لأحد من المتقدمين مثله، . . . وكان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسنة ومعرفة اللغة العربية، صاحب سنة، وسمع منه بمصر عبد الله بن وهب ومثله من الأئمة، توفي في صفر سنة مائتين»[13].

تم تُجْمِلُ القول في فضله «فهو قارىء، مفسر، فقيه، محدث، عالم باللغة»[14].

علم التفسير قبل ابن سلام:

كان الرسول ﷺ مبلغاً ومبيناً لكتاب الله، يرجع إليه الصحابة فيما أشكل عليهم، فيعطيهم الجواب بالقول أو بالعمل، ويوجههم إلى الطريقة المثلى في استنباط المعنى أو الحكم من الآيات الكريمة، حتى إذا اختاره الله إلى جواره كان للصحابة من الملكة التي رباها فيهم النبي ﷺ ما مكنهم من توضيح المبهم من القرآن.

(13) طبقات المفسرين ج 2 ص 371 ترجمة رقم 685.

(14) المصدر السابق ج 2 ص 371.

والحق أن ما فسره النبي ﷺ كان كثيراً بالقياس إلى ما فسره الصحابة من بعده، ولكنه إذا ما قيس بكل معاني القرآن كان قليلاً، وتلك حكمة لعل الله يريد من ورائها فتح الأبواب أمام العقول، وإنماء المواهب، وخلق القدرة على التحليل والاستنتاج، وربط النفوس المؤمنة بكتاب الله، كما أن معاني القرآن واسعة باتساع الزمن المتلاحق، وكان الصحابة متفاوتين في علمهم بالتفسير الأمر الذي جعلهم يختلفون في المراد من بعض آيات القرآن الكريم، لكنه كان اختلافاً يسيراً، لا تعارض فيه، وقد يرجع إلى تعدد الوجوه في الآية على سبيل الشمول، أو إلى تفوق بعضهم على بعض في حفظ وفهم أدوات ووسائل التفسير، أو إلى التفاوت في الاطلاع على لغات العرب وغرائبها، فخلافهم قليل لعدم كثرة الجدل، وقلة تداخل العلوم في عصرهم. يقول ابن تيمية: «الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام، أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من خلافهم في التفسير، يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد»[15].

ثم التقى التابعون بالصحابة، فرووا عنهم في الحديث والتفسير، فقد تفرق الصحابة في الآفاق الإسلامية، فنشأت بذلك مدارس بالأمصار، فكانت بمكة مدرسة للتفسير، وفي المدينة مدرسة أخرى، وفي العراق كذلك. يقول ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير، وطاوس وغيرهم، وكذلك في الكوفة أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس»[16].

ويغلب على مدرسة العراق طابع الرأي، بسبب طبيعة البيئة العراقية التي قلت فيها الاستعانة بالمرويات لانتشار الكذب، وتعدد الفرق المنحرفة، واشتهر فيها من التابعين: علقمة بن مسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد،

---

(15) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص 30.

(16) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص 15.

وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة الدوسي[17] وأهم ما يلاحظ على التفسير زمن التابعين أنه انتقل من الأثر إلى الرأي بصورة تدريجية، وأخذ كل فريق من المفسرين لكتاب الله ينتمي إلى مدرسة في روايته واستنباطه، مما جعل الخلاف العلمي ظاهرة من ظواهر ذلك العصر، كما كان دافعاً من دوافع الخلاف المذهبي في العصور التي تلته.

كما يلاحظ في هذا العهد أن تدوين التفسير كان ضمن كتب المرويات الحديثية، ولم يفرد للتفسير تأليف خاص يجمع جميع الآيات.

فأعلام التابعين مثل سفيان الثوري ووكيع بن الجراح، وشحينة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبيد بن حميد، يمزجون التفسير في الحديث بمصنفات كأن الحديث أساسها.

ثم انبرى عبد الملك بن جريج المتوفى سنة 149هـ[18] إلى جميع الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين في التفسير وهي مستقلة عن الحديث، فكان أول من ألف في التفسير بالمأثور على سبيل الاستقلال، ولا يوجد لهذا الكتاب أثر بين أيدي الباحثين إلا ما ورد من ذكر له في كتب الحديث والتفسير.

فكان أول كتاب شامل للتفسير يصل إلينا هو كتاب أبي زكريا يحيى بن سلام المعني بهذا المبحث.

والناظر في حياة ابن سلام العلمية يجده لم يعدم الصلة بالكوفة لأنها مولده، فلا شك أنه زارها في رحلاته العلمية وهي مجاورة لمدينة البصرة التي أقام فيها أول حياته، والتقى علماء الرأي فيها مما كان له أثر في كتابه التصاريف الذي تناول فيه المعاني المشتركة للألفاظ القرآنية، ككلمة الأمة التي تطلق على معان متعددة، وكلمة الرحمة، وكلمة الكفر[19].

---

(17) التفسير والمفسرون للذهبي ج 1 ص 198.

(18) التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ص 33.

(19) كتاب التصاريف لابن سلام: تحقيق هند شلبي ص 104 ـ 134.

كما أن ابن سلام عاشر علماء البصرة وأخذ عنهم، وقد تلقى القراءة عن الحسن البصري[20] وهي قراءة مشهود لها بالصحة فهي من الأربع عشرة قراءة المشهورة، مع بعض اختيارات من قراءات أخرى بحكم تأثر ابن سلام بمدرسة الرأي التي تجنح إلى النقد والاختبار.

ورحلة ابن سلام إلى الحجاز ومصر ثم استقراره بأفريقية ساعدت على جمعه بين خصائص مدرسة العراق بفرعيها البصري والكوفي حيث الرأي والاستنباط، ومدرسة المدينة المالكية حيث الرواية والتوثيق، فقد لحق بالشيخ البهلول بن راشد وأبي زيد اللخمي وعبد الله بن فروخ في القيروان، كما أنه التقى مالك بن أنس عميد المدرسة المدنية، وأخذ عن مالك، كما روى عنه مالك ثمانية عشر حديثاً كما تقدم[21].

ولا شك أن امتزاج تلك الخصائص العلمية في منهج ابن سلام التفسيري تكسوه أهمية بالغة، وقيمة علمية متميزة، فتجعله يتنكب الشطط في الاعتماد على الرأي، ويتجنب الإمعان في جمع المأثورات، ومن خلال المصادر التي بحثت فيها عن حياة ابن سلام وعن خصائص تفسيره ـ وهي قليلة ـ لم أجد ما يشير إلى وصف لمنهجه في تفسيره، بل يكتفي المترجمون له بذكر العنوان، ولعل ذلك راجع إلى أن تلامذة ابن سلام وعلى رأسهم ابنه محمد وتلميذه أبو داود العطار لم تساعدهم الأحوال على إذاعة علم أستاذهم في بلاد المشرق حيث الإشهار العلمي الذي كان محدوداً في القيروان وقتئذ، ثم اشتهر تفسير ابن سلام بالقيروان في القرن الرابع وما تلاه حتى قال الحصري القيرواني المتوفى سنة 488هـ: يا رُبّ معنى قد استنبطته فهماً: ـ فقيل يحفظ تفسير ابن سلام[22].

---

(20) طبقات المفسرين للداودي ج 2 ص 371.

(21) أنظر هذا المبحث ص 4.

(22) أبو الحسن الحصري القيرواني «محمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحي» ص 369.

تأملات في منهج ابن سلام التفسيري:

إن تفسير ابن سلام يكتسب أهميته العلمية من قيمته التاريخية، فهو وإن كان أقل حجماً من جامع البيان للطبري، إلا أنه متقدم عليه زمناً طويلاً يجاوز قرناً من الزمان، مما يعقد الصلة بين التفسير عند التابعين وبين التفسير في مدارس علماء القرن الثالث الهجري. غير أن هذا التفسير لم يلاق الاهتمام اللائق به من الباحثين المعاصرين إلا في الآونة الأخيرة حيث نشط الباحثون التونسيون في تحقيق بعض أجزائه التي ستظهر مطبوعة عن قريب، وعجزوا عن تحقيق أجزاء منه لما أصابها من الطمس، وقد يمنُّ الله على العلم والعلماء بالعثور على نسخة[23] أخرى سالمة فيتم تحقيق هذا السفر الجليل كله.

وتفسير ابن سلام ليس له عنوان يميزه حسب ما ورد في المخطوطة التي أطلعت عليها بالمكتبة العبدلية التابعة لدار الكتب الوطنية التونسية، وهي تحوي قطعتين: القطعة الأولى[24] برواية[25] أبي داود العطار، تبدأ من آخر سورة الشعراء من قوله تعالى: **﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾** الآية 191 وتنتهي بالآية الأخيرة من سورة الصافات و تشمل سبعة أجزاء، ونسخة القيروان التي تحوي عشرة أجزاء، فيكون مجمل أجزائه سبعة عشرة جزءاً. ولا يوجد لهذا التفسير مقدمة إلا ورقة واحدة فيها كثير من الطمس، وهي من نسخة القيروان تحت رقم 161، تابعة للجزء الأول من التفسير من أول سورة البقرة إلى قوله تعالى: **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾** البقرة (93) يقول الشيخ الفاضل بن عاشور في شأن هذا التفسير: «من صميم آثار القرن الثاني، وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ألف بالقيروان وروي منها، وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان»[26] وقد جمعت الآن النسختان

---

(23) لم يشر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج 4 ص 10 ولا فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ج 1 ص 204 إلى أي نسخة أخرى.

(24) مودعة تحت رقم 7447 = المجلد الأول.

(25) مودعة تحت رقم 18653 = المجلد الثاني.

(26) التفسير ورجاله ص 42.

بالمكتبة الوطنية. ثم يقول الشيخ الفاضل في معالم منهج هذا التفسير: «يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقدي أو الأثري النظري التي سار عليها من بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها»[27].

ثم قال مبيناً فضل هذا التفسير ناقلاً رأي أبي عمرو الداني: «ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام»[28] وبذلك شهد ابن الجزري[29].

ويمتاز هذا التفسير بالإيجاز، ولا يجمع فيه صاحبه معلومة لا تمت إلى التفسير بصلة، كما يمتاز بالوضوح واليسر في الأسلوب، فهو خال من التراكيب المعقدة، فقد كتب في عهد لم تمتزج فيه العلوم الإسلامية بالعلوم المنطقية والفلسفية اليونانية.

كما يتسم بتهذيب المنقولات، والحذق في اختيارها، كما يهتم ابن سلام بالقراءة في تفسيره وأسباب النزول وأحاديث العشر من المأثور: يقول في تفسير قوله تعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾** الشعراء من الآية 192 وما بعدها. «يعني نزل به أي القرآن الروح الأمين: قال قتادة وهو تفسير السدي: «جبريل» وهي تقرأ على وجهين بالرفع والنصب، فمن قرأها بالرفع قال: تنزل به حقيقة الروح الأمين جبريل نزل به، ومن قرأها يقول (نزَّل) به مثقلة الله نزَّل به الروح الأمين، الله نزَّل جبريل بالقرآن على قلبك يا محمد، ولتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، وإنّه لفي زبر الأولين، يقول: بَعْثُ محمد وأمته في زبر الأولين يعني كتب الأولين، **﴿أولم يكن لهم آية﴾** وهي تقرأ على وجهين بالتاء والياء، فمن قرأها بالتاء يقول: قد كانت لكم آية، ومن قرأها بالياء فيجعلها عملاً في باب كان يقول: في كان لهم آية أن يعلمه علمٰاء بني إسرائيل يعني من آمن منهم، فقد كان لهم في إيمانهم به آية ـ هذا تفسير حسن، وقال قتادة: يعني اليهود والنصارى، إنهم يجدون محمداً في التوراة

(27) المصدر السابق ص 42.

(28) المصدر السابق ص 43.

(29) المصدر السابق ص 43.

والإنجيل أنه رسول الله، قال: ولو نزلناه يعني القرآن على بعض الأعجمين، فقرأ عليهم محمد، وفي تفسير ابن مجاهد عن أبيه ما كانوا به مؤمنين: يقول: لو أنزلناه بلسان أعجمي لا تؤمن به العرب كقوله: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾[30] قال قتادة: إذاً لكانوا أشر الناس فيه لما فقهوه، وما دروا ما هو، قوله عزّ وجلّ كذلك سلكناه: جعلناه في قلوب المجرمين: المشركين[31].

ومن خلال هذا النموذج يلاحظ الإيجاز واليسر في هذا التفسير وقلة التفريع، دمجت فيه القراءة باللغة مع النحو والرواية، فلم يكن منهج التفسير قد خطا بعد خطواته الواسعة. كما يلمس الطابع البصري في هذا التفسير حيث ينقل ابن سلام عن الحسن وقتادة كثيراً، كما أنه يتبع قاعدة تفسير القرآن بالقرآن كقوله: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾ كما أنه يراعي تفسير القرآن بالسنة ففي تفسير قوله تعالى ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [الشعراء الآية (214)] يقول نقلاً عن تفسير الكلبي: «إن رسول الله ﷺ خرج حتى قام على الصفا وقريش في المسجد ثم نادى يا صباحاه، ففزع الناس فخرجوا فقالوا: مالك يا ابن المطلب فقال: يا آل غالب، قالوا هذه غالب عندك، ثم نادى يا آل لؤي ثم نادى: يا آل كعب ثم نادى يا آل مرة ثم نادى يا آل كلاب ثم نادى يا آل قصي، فقالت قريش وأنذر الرجل عشيرته الأقربين، انظروا ماذا يريد؟ فقال أبو لهب: هؤلاء عشيرتك فقد حضروا فما تريد؟ فقال رسول الله ﷺ: أرأيتم لو أنذرتكم أن جيشاً يصبحونكم أصدقتموني قالوا نعم، قال فإني أنذركم النار. . .» إلخ الحديث[32]. ولعل شكه في رواية الكلبي يجعله يسندها برواية أخرى فيقول: «وحدثني أبو الأشهب عن الحسن أن هذه الآية لما نزلت دعا رسول الله ﷺ عشيرته بطناً بطنا حتى انتهى إلى بني عبد المطلب فقال: يا بني عبد المطلب: إني رسول الله إليكم لي عملي ولكم عملكم، إني

(30) سورة ابراهيم، الآية: 4 .

(31) مخطوط تفسير ابن سلام المجلد الأول، ق 15 المكتبة الوطنية بتونس رقم 7447 و ق 16.

(32) مخطوط تفسير ابن سلام ق 17 ـ المجلد الأول رقم 7447.

لا أملك لكم من الله شيئاً. . .»[33].

وقد يورد الحديث كاملاً غير منقطع كما روي عن حماد عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال رسول الله ﷺ: «إذا أطاع العبد ربه وسيده فله أجران، والرجل إذا أعتق أمته ثم تزوجها فله أجران، ومؤمن أهل الكتاب إذا آمن بالكتاب الأول والآخر فله أجران[34]. . . وقد يورد الحديث مرسلاً كما في روايته عن أبي الأشهب والربيع بن صبيح عن الحسن ـ وهو من التابعين ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»[35].

ولابن سلام اعتناء بأسباب النزول ففي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**﴾ [العنكبوت 10] يقول: «نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل. . .»[36].

وفي قوله تعالى: ﴿**وذروا ما بقي من الربا**﴾ [البقرة 278] يذكر قصة دين خالد بن الوليد الذي كان له على ثقيف، لما كان أوصاه أبوه، نزلت فيما بقي مما أربوا منه في الجاهلية.

وابن سلام يطرح قضايا تفسيرية للنقاش كما فعل في بيان اختلاف الرأي تبعاً لاختلاف النقل في أول وآخر ما نزل من القرآن، وكما فعل في نزول القرآن على سبعة أحرف، ويقول في القضية الأولى[37]. . . عن العطاردي وكان قد أدرك النبي ﷺ قال: أول سورة نزلت على محمد ﷺ: ﴿**إقرأ باسم ربك. . .**﴾، وحدثني أبو أمية عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال: قلت لجابر بن عبد الله: (أيّ)[38] القرآن نزل أولاً قال: يأيها المدثر، قلت: واقرأ

---

(33) مخطوط تفسير ابن سلام ق 17 ـ المجلد الأول رقم 7447.

(34) مخطوط تفسير ابن سلام ق 55 ـ المجلد الأول رقم 7447.

(35) مخطوط تفسير ابن سلام ق 65 ـ المجلد الأول رقم 7447.

(36) نسخة القيروان في 169 ـ رقم 161.

(37) قبل كلمة العطاردي يوجد محو بالنسخة القيروانية رقم 161.

(38) كلمة يقتضيها السياق ممحوة من النسخة القيروانية.

باسم ربك الذي خلق، قال أحدثك ما سمعته». السائل في هذا الحديث هو أبو سلمة يسأل جابر بن عبد الله، ثم يقول ابن سلام مورداً كلام يحيى بن أبي كثير «قال يحيى والعامة على أن أول ما نزل: اقرأ باسم ربك الذي خلق»[39].

ثم يعرض رأياً مفاده أن آخر ما نزل من القرآن الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة: «وحدثني همام بن يحيى عن قتادة و(فراغ) عن الحسن عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان في سورة براءة: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم...**﴾ وحدثني سعيد بن أبي عروبة عن قتادة... ويقال إن أحدث القرآن بالله عهداً هاتان الآيتان: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله**﴾[التوبة 128 ـ 129]ويجمع إلى الرأي السابق رأياً آخر موافقاً لرأي الجمهور من أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ [البقرة 281] فيقول: «وحدثنا همام عن الكلبي قال: آخر ما نزل من القرآن: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله**﴾ الآية...»[40].

وفي قضية سبعة الأحرف يشهد بالمرويات في تقريرها فيقول: «حدثنا... (فراغ) وحماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل (فقال) بسم الله، في حديث الحسن، وفي حديث حماد: يا محمد اقرأ القرآن على حرف، قال: فنظرت إلى ميكائيل فقال لي استزده، فقلت: زدني فقال: بسم الله اقرأه على حرفين فنظرت...» ويورد الحديث بتمامه إلى قوله ﷺ: «فقال جبريل على سبعة أحرف»[41].

فنرى ابن سلام فيما سقناه عنه من نماذج لمروياته المتعلقة بالتفسير يورد روايات متعددة في المعنى الواحد، ويدعم السند أحياناً بأكثر من راو واحد في

---

(39) النسخة القيروانية رقم 161 لا يوجد بها أرقام صفحات. في هذا الموضع.

(40) نسخة القيروان رقم 161 سورة البقرة.

(41) نسخة القيروان رقم 161 سورة البقرة.

طبقة واحدة، ولكنه يروي عن الكلبي بعض المرويات وهو واه مردود الحديث، وكثيراً ما يقويها بطرق أخرى، ويتسع صدره للآراء المختلفة في المسألة الواحدة، وذلك أثر لانتفاعه بخصائص المدارس المتعددة للتفسير والفقه.

وهكذا مهد ابن سلام السبيل إلى أبي جعفر بن جرير الطبري الذي خرج على الناس بجامعه في التفسير، وقد نقل فيه عن ابن سلام[42] وإن لم يكثر من ذكر اسمه، كما كان تفسير ابن سلام مصدراً من مصادر المفسرين الأفارقة والمغاربة على اختلاف عصورهم وأمصارهم، وكان على رأسهم القرطبي الذي نقل عنه في مواضع من تفسيره مصرحاً باسمه[43]، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى...**﴾ فاطر 45 «وقال الثمالي ويحيى بن سلام في هذه الآية يحبس الله المطر فيهلك كل شيء»[43].

ونقل عنه معنى يزفون من قوله تعالى ﴿**فأقبلوا إليه يزفون**﴾[الصافات 94]«وحكى يحيى بن سلام: يرعدون غضباً»[44]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا**﴾ المزمل 11 ينقل عنه المراد بالمكذبين أولي النعمة: «وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة»[45]. وبلغ من اهتمام المغاربة بتفسير ابن سلام أن قام بعضهم بتلخيص هذا التفسير كما فعل ابن أبي زَمْنين: محمد بن عبد اللّه بن عيسى المَريّ الأندلسي المولود سنة 324هـ والمتوفى سنة 379 [46]، ومخطوط ابن أبي زمنين الملخص لتفسير ابن سلام يوجد بتمامه مخطوطاً في مكتبة القرويين بالمغرب تحت رقم 34 ، كما توجد من هذا المختصر نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم

(42) انظر تفسير الطبري ج 2 ص 250.

(43) تفسير القرطبي ج 6 ط 1 الشعب ص 5443.

(44) تفسير القرطبي ج 7 ص 5539 ط الشعب.

(45) تفسير القرطبي ج 8 ص 6837 الشعب.

(46) طبقات المفسرين للسيوطي ص 90، وطبقات المفسرين للذودي ج 2 ص 165.

(47) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ج 1 ص 218.

820، تقول الدكتورة هند شلبي في قيمة هذا المختصر: «والجانب الهام في هذا المختصر يتمثل في تعيين المؤلف لقراءة يحيى، وإن لم يفعل ذلك دائماً نظراً إلى أن عملية التخصيص تلك يقوم بها ابن أبي زمنين عن اجتهاد منه بشرط أن يكون ابن سلام قد جعل ذلك أمراً ممكناً؛ لذلك نراه يتوقف عن الإشارة إلى قراءة يحيى عندما لا يوفر له ابن سلام أسباب التعرف عليها»[47].

فيبدو من العبارة السابقة أن ابن أبي زمنين لا يكتفي بالتلخيص بل يتصرف بالاستنباط والاجتهاد والمقارنة مما يكسب هذا المختصر أهمية علمية، استوحاها المختصر من كتاب ابن سلام الذي عمد إلى توضيحه وإجمال معانيه؛ لأن تفسير ابن سلام يجمع بين الروايات والنظر فيها، وفي المعاني اللغوية بعين النقد والترجيح، وذكر السيوطي في طبقات المفسرين أن لعبد الرحمن بن مروان أبي المطرف الأنصاري القرطبي مختصراً لتفسير ابن سلام، وقد ولد أبو المطرف سنة 341هـ وتوفي سنة 413هـ[48] فهو متأخر عن ابن أبي زمنين، وهذا المخطوط فيما أعلم مفقود، كما أعلمتني الدكتورة هند شلبي أنّ هناك مختصراً لتفسير ابن سلام كتبه مفسر يسمى «ابن هود» قام أحد الدارسين بتحقيقه في الجزائر مؤخراً، وإذا طبع هذا المختصر سيساعد الباحثين في استيضاح معالم منهج ابن سلام في التفسير.

ومن اهتمامات الباحثين المعاصرين في إبراز خصائص منهج ابن سلام التفسيرية بحث في الدبلوم تقدم به الطالب: مكرور سلوى إلى كلية الآداب بالرباط في المغرب سنة 1990م بإشراف الدكتور: التهامي الراجح، ولم أتمكن من الاطلاع على هذا البحث، وما زلنا نرتقب دراسة وافية معمقة عن منهج ابن سلام في تفسيره، وتحقيقاً كاملاً لتفسيره الذي يصادف الباحثون في تحقيقه صعوبات كأداء بسبب قدم مخطوطته اليتيمة، وتعرض بعض صفحاتها للطمس والخرم، وجهود الباحثين متواصلة في العثور على نسخة أخرى تسهل هذه المهمة الشاقة وإن كان هناك من مأخذ على تفسير ابن سلام فهو احتواؤه على

---

(48) القراءات بأفريقية، هند شلبي ص 162.

(49) طبقات المفسرين للسيوطي ص 54.

بعض الإسرائيليات، وتلك علة تفشت في التفسير منذ نشوئه، لأن بعض الصحابة كانوا أهل كتاب فأسلموا وكذلك بعض التابعين، فنقلوا بعض الإسرائيليات التي تسربت إلى أذهانهم من علم أهل الكتاب. فينقل بعض الإسرائيليات، ولا يعلق عليها بالرد أو القبول من ذلك قوله في تفسر قوله تعالى: ﴿ولها عرش عظيم﴾ [النمل 23] «قال قتادة وعرشها؛ سريرها، وكان سريراً حسناً، كان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، كانت عليه سبعة مغاليق، وكانت دونه سبعة أبيات بالبيت الذي هو فيه، مغلقة»[49].

وتبقى لهذا التفسير أهميته العلمية والتاريخية حيث يعقد الصلة بين المشرق والمغرب، ويوثق حلقة كانت مفقودة بين تفسير الطبري وتفسيرات التابعين التي رووا أكثرها عن الصحابة، كما تبقى له أهميته في امتزاج مدارس التفسير السلفي وأنه اجتمعت فيه مدارس المشارقة والمغاربة، حيث جمع مصنفه مواده من المشارقة وهو بالبصرة ومكة، وأملاه على تلامذته المغاربة بالقيروان، ويعطينا هذا المخطوط فكرة واضحة المعالم عن تطور علم التفسير من دور الرواية المحدودة والاعتماد على الأثر إلى دور النقد للروايات المتعددة في المعنى الواحد، وترجيح بعضها على بعض، وهو فاتحة لعهد التفسير بالرأي الذي نما وتطور على يد البلاغيين والمتكلمين فيما بعد، نتيجة لتشابك العلوم وتداخل المعارف، واتساع أفق التفكير الإسلامي، الذي لم يكن في عصور نهضته مقصوراً على مصادره الإسلامية، بل كان يفتح آفاقه على العلوم الأخرى، ولا تجرفه التيارات الفكرية العاصفة، لقوته المتمثلة في صحة مأثوره، ومتانة معقوله.

ويحيى بن سلام من رواد علم التفسير الذين ساهموا في تطور هذا العلم من مرحلة الاقتصار على النقل إلى مرحلة الاستنباط بالعقل في تدرج وتمهل من غير حيف ولا شطط، كما يدلنا هذا التفسير على حقيقة ماثلة وهي أن

(50) القطعة رقم 7447 ـ المجلد الأول ق 24.

التفسير نشأ وتطور على أيدي علماء الحديث للعلاقة بين القرآن والسنة، فقد كان ابن سلام محدثاً صدوقاً كما كان مفسراً محققاً، فها هو الذهبي يروي حديثاً انفرد به يحيى بن سلام وهو أن النبي ﷺ قال: ما من أيام أعظم عند الله من عشر ذي الحجة إذا كان عشية عرفة نزل عزّ وجلّ إلى السماء الدنيا (والنزول هنا مجازي أي رحمته تعالى). وحفت به الملائكة، فيباهي بهم الملائكة ويقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً حاجّين من كل فج عميق، ولم يروا رحمتي ولا عذابي، قال: فلم ير يوم أكثر عتقاً من يوم عرفة[50].

كما أن ابن سلام بارتحاله إلى القيروان ساهم في عمارة الغرب الإسلامي بالعلم والإصلاح، ففتح باب النهضة العلمية مع غيره من الفقهاء والمحدثين والمفسرين لمدينة القيروان، هذه المدينة المباركة، ولما حولها من المدائن الأفريقية، وفي ذلك عبرة لكل موحد يريد أن يجمع العرب والمسلمين اليوم بأواصر العلم الإسلامي، ويريد أن يكون تواصلهم على جسر متين من العلم والتقوى لا تفلّه الحوادث ولا تقطعه المحن، وعلى الباحثين من الأقطار المغاربية مهمة بناء هذا الجسر العظيم، **﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** [التوبة 120].

ثبت بالمصادر والمراجع على حسب ورودها في المبحث

1 ـ تاريخ الإسلام: د. حسن إبراهيم حسن ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط سابعة ـ 1964م.

2 ـ تفسير يحيى بن سلام: تحقيق محسن ساسي ـ شهادة كفاءة مرفوعة لكلية الآداب ـ تونس.

3 ـ التفسير ورجاله: الفاضل بن عاشور ـ دار الكتب الشرقية ـ ط ثانية: 1972م.

4 ـ معالم الأعيان في معرفة أهل القيروان للصباغ ـ ط ثانية ـ مصر ـ 1978م.

5 ـ فتوحات الإسلام: محمد النجار وأحمد مجاهد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ط أولى ـ 1976م.

6 ـ لسان الميزان: لابن حجر ـ ط ثانية ـ بيروت ـ 1971م.

(51) ميزان الإعتدال للذهبي ج 2 ص 381.

7 ـ تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ـ نشر جامعة الدول العربية ـ دار المعارف بمصر ـ 1977م.
8 ـ الأعلام للزركلي ـ دار للعلم للملايين ـ بيروت ـ ط خامسة ـ 1980م.
9 ـ العرب في صقلية د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ط ثانية ـ 1975م.
10 ـ رياض النفوس لأبي بكر المالكي ـ مصر ـ ط أولى ـ 1951م.
11 ـ ميزان الاعتدال ـ للذهبي ـ ط أولى ـ 1963م.
12 ـ طبقات المفسرين للداودي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط أولى ـ 1983م.
13 ـ مقدمة في أصول التفسير ـ لابن تيميه ـ تحقيق عدنان زرزور ـ ط ثانية ـ 1961م.
14 ـ التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبي ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ط أولى ـ 1961م.
15 ـ كتاب التصاريف ليحيى بن سلام ـ تحقيق هند شلبي ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ 1980م.
16 ـ أبو الحسن الحصري القيرواني: محمد المرزوقي والجيلاني بالحاج يحيى ـ مكتبة المنار ـ تونس ـ 1963م.
17 ـ تاريخ الثرات العربي: فؤاد سزكين ـ الهيئة المصرية للتأليف والنشر ـ مصر ـ 1970م.
18 ـ مخطوط تفسير ابن سلام: المجلد الأول رقم 7447 المكتبة الوطنية بتونس.
المجلد الثاني رقم 18853 المكتبة الوطنية بتونس.
نسخة القيروان رقم 161 المكتبة الوطنية بتونس.
19 ـ تفسير الطبري: ط ثانية ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة: 1954م.
20 ـ تفسير القرطبي: طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ من غير تاريخ.
21 ـ القراءات بأفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس: هند شلبي ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ 1983م.